بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع عشر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله ؛صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين:

المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ وهو ركنٌ واحدٌ، وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس:٦١] **الآية.**

****

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((**المرتبةُ الثالثةُ: الإحسانُ، وهو ركنٌ واحدٌ**)) ؛ «المرتبةُ الثالثةُ» أي من مراتب الدين ، وعرفنا سابقاً أن الدين ثلاث مراتب وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وهذه المرتبة هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ثم يليها مرتبة الإيمان ، ثم يليها مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فمرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، فهي مرتبة عليّة ومنزلة رفيعة لا يبلغها كل أحد ، وإنما يبلغها من يسر الله تبارك وتعالى له ووفقه لبلوغ هذه المرتبة .

والإحسان المراد به: الإجادة والإتقان ، وهذه المرتبة – مرتبة الإحسان – المراد بها إيقاع العمل والعبادة على أكمل الوجوه وأحسن الأحوال في الظاهر والباطن والسر والعلن ؛ فالمحسنون من عباد الله –أهل الإحسان من عباد الله– هم الذين اتقنوا العبادة بحيث أتوا بها ووقعت منهم كاملة من جميع الوجوه ظاهراً وباطناً سراً وعلناً ؛ وذلك لعظم مراقبتهم لله سبحانه وتعالى في عبادتهم وتقربهم إلى الله جل وعلا ، فهم حالهم في عبادة الله أنهم يعبدون الله كأنهم يرون الله ، وهذا فيه أنهم بلغوا الرتبة العلية في المراقبة – مراقبة الله في أعمالهم – بحيث تكون قلوبهم حاضرة وشاهدة بعيدة عن الغفلة .

قال : ((**وهو ركنٌ واحدٌ**)) يعني هذا الركن أو هذه المرتبة – مرتبة الإحسان – ركن واحد ، مرّ معنا الإسلام خمسة أركان ، والإيمان ستة أركان ، والإحسان ركن واحد .

((**وهو أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**)) هذه مرتبة الإحسان ؛ أي أتقنوا عملهم وعبادتهم إلى أن صار حالهم في العبادة بهذا الصلاح «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ، وهذا وإن كان ركناً واحداً إلا أن بعض أهل العلم يعدُّه مقامين هي الاستحضار والمراقبة :

- الأول : أن تعبد الله كأنك تراه؛ وهذا أعلى المقامين ، أن يكون في عبادته لله سبحانه وتعالى كأنه يرى الله ، كأنه ينظر إلى الله جل وعلا .
- والمقام الثاني وهو دون هذا المقام وهو من الإحسان في قوله : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ؛ يعني إن لم تبلغ هذه الدرجة أن تعبد الله كأنك تراه فاعبده مستحضراً رؤيته لك وإطلاعه سبحانه وتعالى عليك .

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأدلة من القرآن الكريم على هذه المرتبة ؛ فذكر جملةً من الأدلة بدأها بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ ؛ «اتَّقَوْا»: أي ابتعدوا واجتنبوا كل ما يسخط الله ويغضبه جل وعلا من المعاصي والذنوب ، فكانوا من الذنوب على حذر ، متقين ومبتعدين عن كل أمر يسخط الله جل وعلا . «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» أي في عبادتهم لله ومراقبتهم له جل وعلا وإصلاح حالهم في السر والعلن والغيب والشهادة ، وأنهم يعبدون الله سبحانه وتعالى عبادة من يراقبُ الله ويخشاه جل وعلا .

قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ ؛ والآية دلت على فضل الإحسان وعلو مقامه من جهة إثبات معية الله الخاصة للمحسنين ، لأن المعية في مقام المدح والثناء يراد بها المعية الخاصة ؛ وهي تعني : الحفظ والتأييد والنصر والعون ، قال الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠] ، قول النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وقول الله تعالى لموسى وأخيه هارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:٤٦] . فالمعية في مثل هذه الآيات معية خاصة ؛ وهي لا تكون إلا لأنبياء الله وعباده المتقين ، وهي تقتضي الحفظ والنصر والعون والتأييد . وفي الحديث القدسي يقول الله جل وعلا : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)) ، معنى : « كنت سمعه ، كنت بصره ، كنت يده» : أن الله يؤيده في سمعه وفي بصره ويكون حافظاً له في حواسّه جل وعلا .

فهذه الآية فيها دلالة على فضيلة الإحسان ، وعظم ثواب المحسنين ، وأن الله سبحانه وتعالى معهم حافظاً وناصراً ومعيناً ومؤيداً .

ثم ذكر رحمه الله الآية الثانية وهي قول الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قوله «وَتَوَكَّلْ»: أي فوض أمورك كلها إلى الله ، واعتمد عليه سبحانه وتعالى وحده في جلب النعماء وفي كشف الضر والبلاء؛ فلا تلجأ إلا إليه ولا تعتمد إلا عليه.

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وفي آيةٍ أخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وهنا قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ .

في الآية الأخرى قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ لأن التوكل لجوءٌ واعتماد ولا يكون هذا اللجوء إلا لواحد وهو الحي الذي لا يموت ، أما الحي الذي يموت ، والحي الذي قد مات ، والجماد الذي لا حياة له أصلاً كل هؤلاء لا يُتوكل عليهم ، لا يتوكل إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين لا شريك له ، ومن سوى الله إما حيٌ سيموت أو حيٌ قد مات أو جماد لا حياة له ، وكل هذه الأصناف لا يتوكل عليها ، التوكل لا يكون إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين سبحانه . وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون» ؛ فهذه فائدة عظيمة في باب التوكل والالتجاء والاعتماد والاعتصام لا يكون شيء من ذلك إلا على الحي الذي لا يموت وهو رب العالمين ، أما الحي الذي يموت والحي الذي قد مات والجماد الذي لا حياة له كيف يُتوكل على هؤلاء ؟! وكيف يعتمد على هؤلاء ؟!

وهنا في هذه الآية قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ذكر هذين الاسمين في مقام الأمر بالتوكل عليه وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ؛ وذلك لأن المتوكل إما متوكلٌ في دفع ضراء ، أو متوكلٌ في جلب نعماء ، فلا يكون توكله في شيءٍ من ذلك إلا على العزيز الرحيم ، فالعزيز: هو القاهر الذي لا يُغلب ، فإذا لجأت إليه في كشف ضراء وشدةٍ وبلاء فهو جل وعلا عزيز قادرٌ لا يغلب ، وإذا كان توكل عليه في جلب نعماء فهو جل وعلا رحيمٌ بعباده يمنُّ ويعطي ويتفضل ويحسن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي ليكن توكلك على من هذا شأنه ؛ الله جل وعلا .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وهذا موضع الشاهد من الآية لمرتبة الإحسان «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ .

﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ أي الذي ينظر إليك ويطّلع عليك ولا تخفى عليه منك خافية ، ﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ حين تقوم لله خاشعاً خاضعاً مناجياً سائلاً راغباً طامعاً ؛ يراك جل وعلا ، يراك سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ، ويرى جميع المخلوقات وجميع الكائنات ، لا يفوته شيء ، ولا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء، يرى جميع الكائنات ، يرى سبحانه وتعالى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى جريان الدم في عروقها ويرى كل جزء من أجزائها ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ؛ وهذا فيه دعوة للعبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى مستشعراً رؤية الله له ومحضراً ذلك في قلبه ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عندما تقوم تصلي فاعلم أن الله يراك ؛ يراك حال قيامك ، يراك حال سجودك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ تركع وتسجد وتركع وتسجد هذا التقلب يراك الله جل وعلا على هذه الأحوال كلها ؛ وهذا فيه دعوة لاستحضار هذا الأمر في القيام والركوع والسجود بحيث يكون العبد في صلاته وعبادته يعبد الله كأنه يرى الله ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع للأصوات ، وسع تبارك وتعالى سمعه الأصوات كلها ، لو قام الأولون والآخرون من زمن آدم من الإنس والجن في صعيدٍ واحد ودعوا في لحظةٍ واحدة ، وكلٌ يذكر حاجته، وكلٌ يتكلم بلغته ولهجته ، لسمعهم رب العالمين أجمعين دون أن يختلط عليه صوتٌ بصوت أو حاجةٌ بحاجة أو لغةٌ بلغة . قال جل وعلا في الحديث القدسي وهو في صحيح مسلم : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا غُمس في اليمّ)) أي في البحر . جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام في بيته تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله ، وذلك عندما ظاهرها زوجها قال : «أنت عليّ كظهر أمي» ولها منه أولاد ، فجاءت حزينة متألمة تجادل النبي ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله ، فكانت تكلمه في مصيبتها ، وعائشة رضي الله عنها في البيت تقول : «كنت أسمع بعض الكلام ويفوتني بعضه» ، وبمجرد أن تنتهي من الحديث مع النبي ﷺ ينزل قول الله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] قالت عائشة رضي الله عنها على إثر ذلك : «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات» .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي بعلمٍ واسع ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[غافر:٧] ، أحاط بجميع الأمور وأحاط بجميع الأشياء ، أحاط جل وعلا بكل شيءٍ علماً وأحصى كل شيء عدداً . علم جل وعلا ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ليس فقط ما سيكون! بل الأشياء التي لا تكون علم الله سبحانه وتعالى أمرها لو كانت كيف تكون ، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٨] هذا أمرٌ لا يكون ، الكفار يوم القيامة لا يردون إلى الدنيا مرةً ثانية ، هذا أمرٌ لا يكون ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[فاطر:٣٦] ولا يردون إلى الدنيا مرة ثانية هذا شيءٌ لا يكون ، والله جل وعلا يقول : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ؛ يعني لو أعادهم جل وعلا إلى الدنيا مرة ثانية لعادوا إلى الشرك والكفر ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ، أمرٌ لا يكون لكن رب العالمين علم جل وعلا لو كان هذا الأمر كيف يكون . فهو علم ما كان وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ، أحاط بكل شيء علماً .

قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هنا تستشعر أثر معرفة العبد أسماء الله وصفاته في تحقيق العبادة وتكميلها ؛ فإذا استحضر العبد أن الله سميع وأنه بصير وأنه عليم ، وهذه الأمور الثلاثة ذكرت في الآية –البصير، السميع، العليم– البصير في قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ، والسميع العليم خُتمت بهما الآية . فاستحضار هذه الأسماء وما تدل عليه من الصفات : البصير ، السميع، العليم ، استحضار العبد لها في صلاته يرفعه في صلاته إلى درجة الإحسان في عبادته وتقربه إلى الله جل وعلا ، وإذا ذهب عنه استحضار هذه الأسماء استولت عليه الغفلة سواء في صلاته أو في غيرها من العبادات .

قال : ((**وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**)) وهذه فيها معنى الآية السابقة ؛ يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في أيّ شان من شؤونك وأمرٍ من أمورك وحالٍ من أحوالك ، ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي ما تتلوا شيئاً من هذا الكتاب في أي وقتٍ وفي أي ساعةٍ وفي أي لحظة ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي لا تدخلون في أي عمل من الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إذ تدخلون وتشرعون فيه . فالله سبحانه وتعالى شهيدٌ ؛ لا يدخل العبد في عمل ولا يشرع في طاعة ولا في أي شأنٍ من الشؤون ولا حال من الأحوال إلا والله جل وعلا شهيد ، وهو على كل شيءٍ شهيد جل وعلا ؛ أي مطلع لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية .

فهذه الآيات تأملها والوقوف عند مضامينها ودلالاتها يعين العبد بإذن الله تبارك وتعالى للترقي لبلوغ الإحسان في عبادته والإتقان في طاعته وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى .

ولما أنهى المصنف رحمه الله مراتب الدين الثلاثة وذكر أركان كلٍّ مرتبة وذكر الدليل على ذلك كله من القرآن ، ختم ذلك بذكر حديث جبريل المشهور الذي جمع فيه النبي عليه الصلاة والسلام مراتب الدين كلها .

قال :

والدليلُ مِنَ السُّنَّة حديثُ جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد، حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه، وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام. فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الإِسْلاَمُ أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا))، قال: صَدَقْتَ. فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: ((أنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ((أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهْ فَإِنَّهُ يَرَاكْ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة؟ قال: ((مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)). قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قال: ((أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)). قال: فَمَضَى فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: ((يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟)) قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: ((هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ)).

****

أورد رحمه الله تعالى هنا هذا الحديث العظيم المشهور بـ«حديث جبريل» ؛ وذلك لأن جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة وهو الملك الذي ينزل بالوحي إلى النبي ﷺ الروح الأمين جاء إلى النبي ﷺ في هذه المرة بصورة أعرابيّ – بصورة رجل – فجلس إلى النبي عليه الصلاة والسلام هذه الجلسة وسأله هذه الأسئلة ؛ ولهذا اشتُهر هذا الحديث بـ«حديث جبريل» ؛ لأنه جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الصورة وجاء معلماً ، وإن كان هو في الحقيقة سائلاً لكنه سائل في صورة متعلم . ولهذا أخذ أهل العلم من هذا فائدة في باب الأسئلة ألا وهي: أن السائل أحياناً يستطيع أن يكون معلماً للناس ، مثل أن يكون في المجلس عالم ويحس أحد الحاضرين بمسألة يحتاج الجميع أن تُبين لهم أو مسائل ؛ فيطرحها وهو يعرف الجواب ولكن يريد

أن يستفيد الجميع ، فيكون في الحقيقة سائل ، لكن في الواقع معلم يريد أن يتعلم الناس ، وله أجره على إحسانه وحرصه . بينما بعض المجالس قد يأتي فيها العالم الذي يستفاد منه فيضيعها بعض الناس ، يضيعها على الناس دون استفادة ، أو بأسئلةٍ لا يكون من ورائها طائل أو لا تفيد الحاضرين .

فالسؤال أمرٌ يحتاج إلى حسن نية وحسن قصد في طلب الفائدة وصدق مع الله تبارك وتعالى في الرغبة ، مثل قول وفد عبد القيس للنبي عليه الصلاة والسلام : « مُرنا بقول فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة » وهذا يبين متى يكون السؤال صالحاً حسناً ، قال : «مرنا بقول فصلٍ نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة» ؛ إذا كان السائل يقصد بسؤاله أن يدخل الجنة بمعرفة الخير والعلم ويخبر الآخرين لينتشر الخير والعلم. فالشاهد أن هذا الحديث فيه فائدة عظيمة في هذا الجانب .

قال عمر ﷺ : « **بينما نحن جُلوسٌ عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إذا طلع علينا رجلٌ شديدٌ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد**» ؛ هذا الأمر بهذه الصفة في زمنهم ووقتهم يعدُّ أمراً في غاية الغرابة ، أما في زماننا ليس أمراً مستغرباً ، في زماننا قد يأتيك الرجل من أقصى الدنيا ولا ترى عليه أثر السفر ، لا ترى عليه وهج الصحراء ولا لفح الرياح ولا الشمس ولا ترى عليه أثر التراب والغبار ، ما ترى عليه شيئاً من ذلك ، بينما في وقتهم المسافر يُعرف أنه شخص جاء مسافراً ؛ لأن الغبار يملأ الجسم ، والشمس أثرت في الجسم، والرياح أيضاً أثرت فيُعرف أن هذا الشخص مسافر .

فجاءهم شخص شديد بياض الثياب وشديد سواد الشعر ؛ المسافر لا يمكن أن يأتي في وقتهم بمثل هذه الهيئة ، قال : « لا يُرى عليه أثَرُ السَّفر، ولا يعرفه مِنَّا أحد » ؛ غريب جداً لا يرى عليه أثر السفر ، أي علامة من علامات السفر المعهودة لا ترى عليه ، وأيضاً ليس أحد يعرفه ، يعني ليس من أهل المدينة رجل جاء مسافراً ليس من أهل المدينة ، ومع هذا جاء بهذه الهيئة وبهذه الصفة .

وهنا يا إخوان يحسن بنا أن نذكر نعمة الله علينا بوسائل النقل الحديثة التي يسرها الله جل وعلا في هذا الزمان ، وإذا تأملت في هذه الوسائل مقارناً بالوسائل القديمة تجد أن الحاج لا يصل من بعض البلدان البعيدة إلا بعد الشهر والشهرين في معاناة وشدة ، وأهله يودعونه توديع من لا يعود ، فيه مخاطر ومخاوف ومهالك وأخطار متعددة ، والآن يركب في مركبٍ مريح وأجواءٍ مكيفة يمر بالعواصف والرياح ولا يشعر بها ولا يدري عنها إلى أن يصل المكان الذي يريد ، وفي الطريق كلما أراد أن يكلم أهله كلمهم ، وكلما أرادوا أن يكلموه يكلمونه ، "وصلنا إلى هنا ، أتينا إلى هنا ،أنا بخير أنا بعافية" ، بينما قديماً يغيب الشهر والشهرين والثلاثة ليحج ولا يدري أهله هل هو حيٌ أو ميت إلا إذا فاجأهم راجعاً ، والآن النعمة بسهولة المواصلات وتيسرها يحج من أقصى الدنيا في خلال سبعة أيام بما فيها أيام الحج ، بينما في وقتٍ من

الأوقات بعض المناطق ما يصل إلا بالشهرين أو الثلاثة ، يأتون من بعض الدول بالسفن الشراعية ثلاثة أشهر بعضهم في السفينة حتى يصل ، ثلاثة أشهر قادم وثلاثة أشهر راجع، وبعض كبار السن أدركوا هذه المعاناة وأخبروا عنها وتحدثوا عن أسفارهم ومعاناتهم .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يحرص على استعمال هذه النعم والوسائل في طاعة الله وفيما يقرب الله إلى الله سبحانه وتعالى ، الآن أنعم الله سبحانه وتعالى بالجوال في الجيب يحمله وهي نعمة عظيمة يطمئن على أهله ويطمئنون عليه ، ومع ذلك بعض الذين يحملون الجوالات ما يتقون الله في مساجد المسلمين ، ولا يراعون حرمة المساجد التي هي أحب الأماكن إلى الله ، ولا يراعون حرمة الصلاة ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] ، ولا يرعون للمؤمن مكانته والمصلي صلاته وخشوعه ؛ ولهذا ترى دائماً في مساجد المسلمين الناس يصلون ثم تضرب الموسيقى هنا وهناك داخل المساجد، هل هذا فعل من يتقي الله ويخاف الله جل وعلا ويراقب الله ؟! تُضرب الموسيقى والمعازف المحرمة في مساجد المسلمين ؟! المسلمون في صلاتهم سجّد وركّع ثم تضرب الموسيقى! وتستمر تضرب في إيذاءٍ شديد وتفويتٍ للطاعة والعبادة والخشوع وأذيةٍ لعباد الله تبارك وتعالى في صلاتهم، فهل هؤلاء قدروا نعمة الله حق قدرها ؟

قل مثل هذا أيضاً في وسائل النقل يكرم الله سبحانه وتعالى عبده بسيارةٍ طيبةٍ جيدة يتنقل فيها ، ثم يمشي فيها إلى المحرمات! ويستمع فيها للمحرمات! هل رعى لنعمة الله حقها ؟ قال : ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل:١٩] .

فينبغي للعبد أن يذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وأن يشكر الله على النعمة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] ، وأن يحرص على استعمال النعمة في طاعة الله ؛ فهذا من شكرها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣] ، مِن شكر الله على النعمة أن تستعمل النعمة في طاعة الله ، فإن استعمل الإنسان النعمة في معصية الله لم يشكر الله جل وعلا على نعمته .

قال : ((**حتّى جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسند رُكبَتَيْه إلى رُكبَتَيْه، ووضع كَفَّيْه على فخذيه**)) أي جلس جلسةَ أدبٍ ووقارٍ واحترام بين يدي الرسول الكريم ﷺ .

((**وقال: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسلام، قال : أن تَشْهَدَ أَن لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَدَا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اِسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**)) فذكر مباني الإسلام الخمسة وقد تقدمت معنا وتقدم أيضاً شيءٌ من الكلام على مضامينها ومعانيها .

فقال الرجل السائل الذي هو جبريل قال : ((**صَدَقْتَ. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُه!**)) هذا أيضاً أمرٌ عجيب ؛ تعجَّبوا من الأمر الأول وتعجَّبوا هنا من هذا الأمر؛ يسأل ويصدِّق ، والذي يصدق من هو؟ الأعلم ، الذي يصدق الأعلم ، ولهذا جاء في بعض الروايات : «كأنه أعلم منه» ، ((فعجبنا له يسأله ويُصَدِّقُه!) يجيب النبي عليه الصلاة والسلام على سؤاله ويقول : صدقت ، فتعجب الصحابة ﷺ من ذلك لأن هذه تدل على علم عند هذا السائل ، أما من لا علم له لا يستطيع أن يحكم أو يقول مثل هذا .

((**قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرْ،وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قال: صدقت**)) وهذه أركان الإيمان الستة ومضى أيضاً الكلام على معانيها .

((**قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكْ**)) ذكر هنا الإحسان وأن له ركن واحد وهو: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكْ . ومضى أيضاً الكلام على هذه المرتبة. ويكون بهذا ذُكر في الحديث المراتب الثلاثة للدين ؛ الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان ، وأعلى هذه المراتب الإحسان وهي أعلى مراتب الدين وأرفعها ، ومن كان محسناً فهو مؤمنٌ مسلم ، ومن كان مؤمناً فهو مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ولا كل مؤمن محسناً ؛ فهذه درجات متفاوتة تُعرف من خلال هذا الحديث العظيم .

وهذه الأمور الثلاثة –الإسلام والإيمان والإحسان– هي ديننا ؛ ولهذا ختم النبي عليه الصلاة والسلام الحديث بقوله : ((**هذا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ دِينَكُمْ**)) هذا ديننا ؛ ديننا مراتبٌ ثلاث: إسلامٌ وإيمانٌ وإحسان .

((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) وجاء في بعض الروايات : «متى الساعة ؟ متى وقت الساعة ؟» ، ((قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة)) أي عن وقتها .

فقال عليه الصلاة والسلام : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) أي علم الساعة ليس عندي ولا عندك وإنما عند الله جل وعلا ، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣] ، فالساعة علمها عند رب العالمين، ولا يعلم قيامها إلا رب العالمين جل وعلا ، علمها عند الله .

قال : ((**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**)) بهذا أجاب عليه الصلاة والسلام جبريل ، وجاءه في حديث آخر رجل وقال سائلاً النبي ﷺ : متى الساعة ؟ ماذا قال له ؟ قال : ((ماذا أعددت لها)) ؛ وهذا فيه أن السائل إذا سأل في أمر لا يعنيه أو لا يحسن به أن يسأل عنه فالمناسب أن يوجَّه إلى السؤال المناسب ، فإذا قال : متى الساعة ؟ يوجه إلى السؤال المناسب وهو الاستعداد للساعة هذا هو المهم ، المهم

الاستعداد ، الساعة آتية لا ريب فيها ، قادمة لا محالة ، فليس المهم أن تعرف متى الساعة المهم أن تستعد للساعة .

وبعضهم يضرب مثالاً لهذا تقريبياً للتوضيح يقول : لو كان أناس في بلدة وأقبل عليهم عدو يريد مداهمة البلد الذي هم فيه ، وجاءهم رجل قال : العدو وصل ، جاء العدو ، العدو آتي وصل قادم عليكم ؛ فانقسموا فريقين فريق أخذ يستعد ويتهيأ ويتجهز للملاقاة ، والآخرين جلسوا بدون عمل ؛ متى يصل ؟ وين المسافة ؟ كم باقي؟ وجالسين بدون عمل!! فالسؤال الصحيح في مثل هذا المقام هو الاستعداد ، سواء أن تأتي الساعة غداً أو بعد غدٍ أو بعد سنة أو أقل أو أكثر المهم هو الاستعداد والتهيؤ ، أن يستعد ويتهيأ ، قال : ((ماذا أعددت لها ؟)) قال : ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله ، قال : ((أنت مع من أحببت)) ، قال أنس راوي الحديث : «ما فرحنا بشيء بعد فرحنا بالإسلام مثل فرحنا بهذا الحديث» ، قال أنس: «وأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر وأرجو الله جل وعلا أن يجعلني معهم وإن لم أبلغ مثل عملهم» ؛ وهذا فيه فضيلة حب أنبياء الله وعباد الله والصحابة الكرام وأنه يبلغ بالإنسان مبلغاً عظيماً في الرفعة والخير ورضا الله سبحانه وتعالى عنه ، قال : ((أنت مع من أحببت)) .

قال : ((**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**)) الأمارات: العلامات ، أمارة: أي علامة ، أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا: أي أخبرني عن علاماتها أشراطها ، ما هي العلامات – علامات الساعة – ؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**أَنْ تَلِدَ الأمة رَبَّتَهَا**)) ربتها : أي سيدتها ، وهذا قيل في معناه أقوال منها: أن السراري تكثر في العرب حتى يوجد أن الأمة تلد سيدتها ، هذا من المعاني التي قيلت وقيل غير ذلك .

قال : ((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ)) الحفاة : الذي ليس عندهم نعال للفقر والعوز والحاجة ، والعراة: يعني ليس عندهم لباس ، أو يكون عندهم لباس لا يكفي ولا يستر ولا يفي من شدة الفقر .

((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ)) أي الفقراء ((رِعاءَ الشَّاءِ)) يعني الواحد منهم ليس معه إلا قليل من الأغنام يرعاها ويقتات هو وأهله وولده ، أغنام قليلة عند هذا الذي يملك

((أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)) أي يتنافسون أيهم أطول بناءً من الآخر ، هذا يبني أدوار وهذا يأتي بجنبه ويبني أعلى والآخر يبني أعلى ، يتنافسون من الأطول والأرفع بناءً،يتطاولون في البنيان.

قال : ((**فَمَضَى**)) أي ذهب ، هذا الرجل الغريب ذهب .

((**فَلَبِثنا مَلِيا**)) أي بقينا زمناً ووقتاً ، وجاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ أمرهم بطلب الرجل بالبحث عنه فلم يجدوا له أثر .

قال : ((**فَلَبِثنا مَلِيّا، فقال: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**)) هل تدري من هذا الرجل الذي جاء وجلس وسأل تلك السؤالات ؟ أتدري من السائل ؟

(**قلت: الله ورسوله أعلَم، قال: هذا جِبْرِيلُ**)) السائل جبريل

((**هذا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِمُكُمْ أمر دِينَكُمْ**)) جاء يعلمكم الدين . فالحديث تعليم الدين ، هذا الحديث حديث تعليم الدين وقد جُمع فيه الدين بمراتبه وذكرت الأركان لكل مرتبة وبينت أحسن بيان ؛ فهو حديثٌ مشتملٌ على بيان أمر الدين ، وهو جامع ومن أجمع الأحاديث في هذا الباب ، ولهذا كان بعض أهل العلم يطلق على هذا الحديث «أمّ السنة» نظيراً للفاتحة في القرآن يقال لها «أم القرآن»؛ وذلك لأنها أجملت ما فُصِّل في القرآن ، وهذا الحديث أجمل ما فُصّل في السنة ، ولهذا أطلق عليه بعض أهل السنة «أم السنة» لأنه حديث جامع جمع فيه النبي ﷺ الدين . والحديث ينبغي أن يُعنى به كل مسلم حفظاً ومذاكرةً ومراجعة فهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ نافع .

ثم بعد ذلك دخل المصنف رحمه الله تعالى في بيان الأصل الثالث في معرفة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولعلنا نكتفي بهذا القدر . والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه .